الميتافيزيقا عند وايتهيد

م. د. سهام شيت حميد م. د. محمد عبد الله الخالدي
جامعة بغداد – كلية الآداب

المقدمة:

الفرد نورث وايتهيد فيلسوف انكليزي ولد في عام ٨٦١ ، دخل جامعة كامبردج وتخرج منها وعين فيها عام ٩١٠ ، ثم انتقل إلى لندن، وكانت اهتماماته العلمية منها الرياضيات وفلسفة العلم، ثم الميتافيزيقيا، له مؤلفات مهمة في تاريخ الفكر العلمي والفلسفي ، أهمها :

- العلم والعالم الحديث نشر عام ١٩٢٥ .
- الدين من طور التكوين نشر عام ١٩٢٦ .
- أهداف التربية نشر عام ١٩٢٨ .
- مغامرات الأفكار نشر عام ١٩٣٣ .
- العملية والواقع ظهر عام ١٩٢٩ .

وله مؤلفات مهمة أخرى، نشرت بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية . تميزت بأسلوب علمي رصين، بين فيها موقفه من الفلسفة ومن العلم، ويعد وايتهيد من علماء الرياضيات والفلسفة الطبيعيا . في هذا البحث نحاول تبيان أصول فلسفته الميتافيزيقية والعلمية . ومحاولة وايتهيد بناء نظرية جديدة من منظور جديد لتثبيت المفاهيم والمبادئ العامة لدراسة الوجود . لقد بدأ في دراسته للميتافيزيقا ، فكان يرى أن غاية العلم فهم الطبيعة، وغاية الفلسفة ربط العالم الحسي بالعالم الطبيعي ، ومن هذا المبحث الموسوم الميتافيزيقا عند وايتهيد) بحثنا مشكلة الميتافيزيقا والمبدأ الانطولوجي، ثم طبيعة الميتافيزيقا، ثم علاقة الميتافيزيقا بالمشكلة الابستمولوجية، ثم مشكلة الزمان والمكان، وهكذا بدت المشكلة الميتافيزيقية واضحة بعد ان تناولنا الأجزاء المهمة منها ومعرفة موقف الفيلسوف منها وهي كالآتي :

ا . موقف وايتهيد من دراسة الوجود والمبدأ الانطولوجي : كان وايتهيد متفقاً مع أرسطو فيما يتعلق أساس المشكلة الميتافيزيقية فقد ذهب الاثنان لى أن المشكلة الميتافيزيقية تتركز في البحث عن ماهية وطبيعة الموجود الجزئي، واتفق وايتهيد مع أرسطو لى وجود الكيان الجزئي أي الشيء الفردي الذي يوجد وجوداً فعلياً وواقعياً وفي هذا نجد وايتهيد يقول : إن المبدأ الأر طي العام، الذي سلمنا به، يقرر أنه بمعزل عن الأشياء الفعلية لا يوجد شيء ، لايوجد شيء واقعي، أو شيء له أدنى تأثير) .

إن وايتهيد يستعمل كلمة فعلي Actual لكي يصف بها الأشياء الجزئية لاسيما في كتابه التطور وعالم الواقع). ن هذا المصطلح يعني الوجود بكل ما تحم له الكلمة أي بمعنى الوجود الذي لا يكون وراءه شيء ، ومن ثم تكون الأشياء الفعلية هي الأشياء التي توجد بأكمل ما يمكن . وعلى هذا فهذه الأشياء هي الموجودة بحق ، إما كلمة كيان (Entity) فهي مرادفة تماماً في اللغة اللاتينية لكلمة hing ، وفكرة الكيان فكرة مهمة جد ، ويرى وايتهيد انه يمكن التمييز بين تلك الكيانات عن طريق اس ا مصطلح فعلي Actual) إذ تميز كلمة فعلي بين الكيانات المستقلة والكيانات ذات الوجود الكامل عن الكيانات الأخرى التي هي ليست كذلك ، فالفعلي من الكيانات يشير إلى وجود آخر عكس غيره من الكيانات . لذلك جعل وايتهيد مصطلح الكيان الفعلي) Actual Entity مرادفا للمصطلح الارسطي Ovoiu وهذا المصطلح الذي ذكره أرسطو في فلسفته الميتافيزيقا الذي يمكن أن يشير إلى ذلك الكيان الجزئي أو إلى الشيء الفردي الذي يوجد وجود فعلي وواقعي لقد أدرك وايتهيد أن هذه الحقيقة وهي : أن الأشياء الموجودة وجودا تاما تمثل الاهتمام الرئيسي للبحث الميتافيزيقي .

كان تأثر وايتهيد بأرسطو واضحاً جداً في موضوع الكيانات) وعدّ ذلك المفهوم مفهوماً انطولوجياً وأساسياً في فلسفتا ، ولمفهوم الكيانات الفعلية أ ر أساس في المشكلات الميتافيزيقية . أن الـ بدأ الانطولوجي يعني فلسفياً علماً يقوم بدراسة الوجو ، وهذه الدراسة تختلف في جوهرها عن الانثرو ولوجي ، التي تهتم بعلم الإنسان، فالانطولوجيا تد رس الضوء الذي يكشف عن الموجودات ، الأشياء والفكر الإنساني ، وكذلك تختلف الانطولوجيا عن علم الأخلاق ، فالانطولوجيا ت حث عن الحقيقة، وعن المطلق ، وهذان المفهومان هما جوهر الدراسة الميتافيزيقية فالحقيقة والمطلق غاية من غايات الفلسف).

ويعرف الدكتور محمود رجب الانطولوجيا بقولها : أنها البحث في معنى الوجود بما هو حقيقة ، وهذا يعني أن هذا المبدأ يهتم بالوجود وماهية الوجود الان ساني، إذ يكون الوجود موضوع اهتمامه الرئيس ، على ن يكون هذا الوجود وجود الكيانات الفعلية Actual Entities التي وحدها الموجودة . ووايتهيد يتفق من الأساس مع أفلاطون وأرسطو من حيث اعتبار المشكلة الميتافيزيقية الرئيسية هي : مشكلة الطبيعة القصوى للأشياء، وهي مشكلة الوجود . ان هذا الموقف الميتافيزيقي يتطلب قبول كيان فعلي فريد يكون المنبع الولي الذي تشتق منه الغاية الذاتية لكل كيان فعلي . و شار وايتهيد لى ن هذه المشكلة هي نفسها التي واجهها رسطو في مسألة نفسها وحلها بالطريقة نفسها . كانت هذه المشكلة الفلسفية الأولى تحت دائرة البحث الفلسفي عند الفلاسفة السابقين ويشير ويوضح بذلك وايتهيد موقفه من فكرة أرسطو : حينما بحث المسألة الميتافيزيقيا ، لم يكن منحازاً أو متعصباً على الإطلاق، وانه كان أخر الميتافيزيقيين الأوربيين ذوي الأنصاف ، وبعد أرسطو فان الاهتمامات الأخلاقية والدينية بدأت في التأثير من النتائج الميتافيزيقية .

. من المشكلات الأساسية التي اهتم بها وايتهيد في دراسته لمفهومين أساسيين من نظرته الميتافيزيقية التي حاول فيها أن يظهر جانب دراسته من فلسفة العلم والفلسفة العلمية وهما الصيرورة الطبيعية والديمومة عن هذا الموضوع يرى د . ياسين خليل ان الفريد نورث وايتهيد يضع فلسفة شاملة للكون أساسها الصيرورة الطبيعة والديمومة (Process and Reality . وقد اتخذ من حقائق الفيزياء والبيولوجيا مادة لفلسفته في الوجود والمعرفة . ومن خلال دراسته للميتافيزيقيا حاول وايتهيد فهم سوا ا وعالم رياضيات وعالم منطق الافادة من نتائج العلوم الفيزيائية والطبيعة وإخضاع هذه النتائج داخل إطار فلسفي محدد يبين صلات النتائج والاستنتاجات الفلسفية المترتبة عليه .

فانصب اهتمامه في دراسة مشكلة طبيعة الميتافيزيقيا ، ويرى الدكتور علي عبد المعطي محمد في كتابه الفرد نورث وايتهيد، فلسفته وميتافيزيقيا) ر : الميتافيزيقيا عند وايتهيد تمثل جانباً يمثل جوهر فلسفة الميتافيزيقية ومن هذا كله نفهم ان وايتهيد يستخدم مصطلح الفلسفة التي تدرس الوجود على جهة الشمول والإطلاق، وعلى نحو ما يمكن ان يكون، بل من الواجب عليها ، ن ترتفع إلى ما هو أعلى من العالم الطبيعي المحسوس فالفلسفة مبحث يقسم أ قساماً فرعية : مثل الميتافيزيقيا ، والايست ولوجيا والكوزمولوجيا، والأخلاق والجمال ...) ، فالفلسفة في

أي وايتهيد والميتافيزيقيا هي العلم الكلي ، وبهذا ينقلنا وايتهيد إلى محاولة جديدة من منظور جديد بسبب المفاهيم مثل الكينونة، الحقيقة، الكون ، ويسمى وايتهيد هذه المفاهيم نها المناسبات الفعلي) ويعرفها نها الأشياء النهائية والواقعية التي يتكون منها العالم) ، تم يطلق عليها مفهوم آخر هو : الواقعة الكاملة ونحن نستطيع ن نعبر عن هذا التصور الخاص بالواقعة الكاملة من مصطلحات تشير إلى أفكار رئيس ة تتعلق بطبيعة الواقع ، وهنا نجد أنفسنا في ميدان الفلسف) ، وهنا يعرف وايتهيد الميتافيزيقيا أولاً (يقول : إن الفلسفة التأملية تحاول تشكيل نسق مترابط ومنطقي وضروري من الأفكار العام ، في مصطلحات يمكن عن طريقها تفسير كل عنصر من عناصر خبرتن) . أما التعريف الثاني فهو الذي أورده في كتابه الدين يتكون) وفيه يقول (ذ أعني بالميتافيزيقيا العلم الذي يبحث عن اكتشاف الأفكار العامة المناسبة أساساً والتي لاعني عنها بالنسبة إلى تحليل كل شيء يحدث) .

ويمكن بعد هذا ن يعد أهم ما يميز الفكر الميتافيزيقي كون الميتافيزيقيا تعمل على استحداث مفاهيم ومبادئ عامة لفهم الوجود أو تجربة الوجود ، وتكون هذه المفاهيم ثابتة وضرورية ومفسرة لكل الوجود والكينونة على نحو عام ان هذه مسأل ة ترتبط بمشكلة تثبيت جوهر الحقيقة، و ما بسبب كم نها عامة فذلك كي تكون صالحة لتفسير كل عنصر من عناصر تجربتن .

ويشترط أيضاً أن يكون النظام ميتافيزيقياً متماسكاً ومنطقياً وممكن التطبيق ، ويعني بالتماسك ن تكون القضايا مترابطة ترا طاً عضوياً ومكملة أحداها للأخرى ، بحيث لا يكون لها معنى بمعزل عن النظا ، ويعني بالمنطقية انه لا تناقض بين القضايا وان تكون الحدود معّرفة ويستدل على الن ائج وحسب قواعد الاستدلال الصحيح . وهذا يعني ان الميتافيزيقيا تتطلب فهم طبيعة الكيان الفعلي من جهة مبادئه العامة التي يستدرك فيها مع أي كيان فعلي آخر ، أو من جهة ملامحه التي تكون عامة ين كافة الكيانات الفعلية أو تحدد ما تكون عليه أو تبين ماهيتها) . إذ ن ما يحتاج إليه الفكر هو اللعب الحر للخيال الذي تتحكم فيه ضرورات التماسك والمنطق .

وتمثل ميتافيزيقيا وايتهيد أهم وانضج انتقال نقل المعرفة العلمية والمباحث الابستمو لوجية إلى المباحث الميتافيزيقية ، وعلى الرغم من ان بداية فلسفة وايتهيد تمثل فلسفة الرياضيات إلا انه اتجه للاهتمام بمشكلات المعرفة الميتافيزيقية صور خاص ة للقيام بمعادلة جديدة ومخلصة لإعادة المكانة إلى الميتافيزيقا وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وبناء لميتافيزيقا على أسس علمية سليمة ، وا واقع

أن الميتافيزيقا عند وايتهيد تحاول ان تبني مذهباً أو نظاماً يضم الأفكار العام ، فمثل هذه الأفكار تمكن من تفسير كل عناصر تجربتن ، بحيث تكون هذه الأفكار مترابطة أو متعلقة بعضها ببعض تعلقاً ضرورياً وهذا الترابط يكون في الوقت نفسه معياراً مهماً ورئيساً يجب ان يرتقي إليه أي نسق ميتافيزيقي ، ويتضمن معياراً دقيقاً يجب توفره من تلك الأفكار بالميتافيزيقية نفسه [٢] .

فالميتافيزيقيا بحث منظم عن أسس ومبادئ الكون أو ماهيته وهذا البحث يكوّن نظاماً من الأفكار العامة يبدأ بالتجربة ثم يعمم منها بحرية محدودة بالمبادئ المنط قية مع افتراض عقلانية الكون أو على الأقل عقلانية تجربتنا عن الكون . ولهذا يذهب وايتهيد إلى انه لا يمكن فهم الترابط فهماً أعمق وإدراك أهميته القصوى بالنسبة لإقامة الأنساق ، والتفهم العقلي الكامل لـ ، إذا نظرنا فيما يتناقض مع ، اعني إذا نظرنا في اللا ترابط ، إن اللا ترابط يعني عند وايتهيد ذلك الفصل التعسفي الذي يشير إلى ن المبادئ أو الأفكار لا تحتوي أو لا تملك أية علاقات ترابط وفقه ، ومن ثم لا يمكن ان يتضمن بعضها البعض ، ولا يمكن بالتالي ان تؤسس نسق [٣] . ذن فالترابط عنصر مهم من الميتافيزيقيا، لأن الميـ افيزيقا ـ بحث عبر المبادئ الأولى ، وبذلك يكون الترابط المطلب الأساس لبناء مذهب ميتافيزيقي متكامل وهذا ما يقره وايتهيد ـ ، إذ يقول : إن الترابط يمثل أعظم واكبر مطلب عقلي سليم [٤] ، أي ـ لتفكير العقلي السليم يمكننا الوصول إلى ترابط الأفكار وانسجامها على نحو نستبعد معه العشوائي .

ويرى وايتهيد : أن الأهمية الرئيسة للترابط في الميتافيزيقيا تتضمن خاصية رئيسة لها تتمثل في تعقب النزعة العقلية إلى آخر مدى وما يترتب على ذلك من وجود ترابطات داخلية رئيسة بين الأشياء، وأن العالم بما يحويه من عناصر للنظام والفوضى يشارك في تدعيم هذا الاتجا [٥] . وهنا تتضح أهمية الترابط في الأفكار في أي بناء فكر ميتافيزيقي إذا نظرنا إلى نقيض ، أي إلى اللا ترابط ، فعدم الترابط يعني التفكك أو الانفصال العشوائي أي لا توجد علاقة متبادلة أو ارتباط وثيق داخلي . ـ يرى وايتهيد ان الحقيقة عملية صيرورة مستمرة أو سيل من ـ فكار لا ينقطع ، يمكن تحليله إلى وحدات أساسية ذرية هي الحوادث وهذه الصيرورة هي محاولة فلسفية للاستفـ دة من المجال أو الحقل الفيزياوي ، كما ان الحوادث تشبه الخلايا في ا لأحياء والالكترونات في الفيزياء ، والحادثة نقطة زمانية ذات أبعاد أربعة يكون الزمـ ن البعد الرابع فـ ه ، وهي اقرب إلى الطاقة منها إلى المادة وترتبط بما يسبقها وما يليها ارتباطاً عضوياً ، إلا نـها تتمتع بشخصية خاصة بها كالخلية والإلكترون وتعبر كل حادثة جديدة عن خلق أو إبداع .

و عتقد وايتهيد أن الفلسفة والعلم يهتمان بفهم الوقا ع الفردية كأم لة للمبادئ العامة ، يمكن فهمها كتجريدات أما الوقائع فلا تفهم إلا من خلال تجسدها في المبادئ [٦] . فإذا كانت الفلسفة تبحث في التعميمات المميزة للواقع الكامل للحقيقة التي تصبح الحقيقة من دونه مجرد تجري ، فان العلم هو الذي يصنع التجريد وهو الذي يقدم الحقيقة له .

٢ . تعد قضية ا لمنهج ، مسألة أساسية في دراسة المشكلات الميتافيزيقية وقد ظهرت هذه القضية بوضوح في موقف وايتهيد من المسألا . عالج وايتهيد فلسفته الميتافيزيقية بمنهج علمي هو منهج التعميم الوصفي [٧] ، وهذا المنهج لا يختلف كثيراً عن المنهج الاستقرائي، وأحياناً سمى بالمنهج الاستدلالي الاستقرائي، وبما ان وايتهيد فيلسوف تجريبي عقلي فان تجريبية وايتهيد الجذرية تتجلى في تأكيده ن الانتقال من الخاص إلى العام أو من الخبرة الحسية إلى الحكم العقلي المستدل منها مباشرة يتم مباشرة بدون وساطة من مبادئ أو مفاهيم عقلية تكون ير مشتقة من الخبرة الحسي ، ومن ثم فالتفسير عنده لا ي م من خلال مفاهيم قبلية أو فرضية ، بل في إطار مبادئ مبثوثة في الطبيع ، تكتشف خلال الحدس أو خلال إدراكنا الحسي لها ، وهذا يستفاد من قوله ن الغاية من الفلسفة الطبيعي ، وصف الطبيعة القابلة للمعرفة الحسية بحدد ما هو قابل للمعرفة الحسيا [٨] .

ويرى وايتهيد ان المنهج الفلسفي ينطوي بالضرورة على التعميم، ويتضمن هذا التعميم عملية انتقال من الجزئي العيني إلى الكلي ، و و يقوم على الوصف أكثر مما يقوم على الاستنباط وعلى الرغم من ان وايتهيد عدّ الاستنباط منهجه الأساسي في ا لرياضيات واعتبره كذلك حج ر الزاوية في مجال البحث الفلسفي ، وبذلك يطبق منهج منهج التعميم الوصفي) الذي يتخذ شكلا وصفا للعملية الديناميكية وعنده انه أولى من ان يتولى وصف البنية الاستاتيكيا ، ويضع وايتهيد مكان الوصف المورفولوجي وصفاً للعملية الديناميكية للحياة [٩] . لذلك يجمع وايتهيد بين منهج التعميم الوصفي وبين المنهج العلمي المعاصر من د راسة الميتافيزيقي . لذلك يرى ن أهم ما يميز نظام وايتهيد الميتافيزيقي انه يحاول الاستعانة بوض ا ح بكل ما توصل ليه العلم الحديث في مختلف اختصاصاته وانه يحاول ن يربط وينسق بين حصيلة المعرفة ا نسانية المعاصرة أي يجمع بين تخصصه العلمي ودراسته للميتافيزيقيا ان المنهج عند وايتهيد في دراسته عملية الصيرورة الطبيعية والديمو ة يقوم على جانبين : تجريبي وعقلاني ، لذلك حاول الانطلاق في

الواقع لبناء تعميمات تتميز بالمنطقية والتماسك ثم محاولة التـ بيت في كون هذه التعميمات كافية وممكنة التطبيق على الواقع [١٠].

ان مكونات التجربة لا يمكن ان تتبين أو تتضح إلا بعملية صعبة من الاستدلال العقلي ، ونحن نستطيع بهذه الطريقة التي يسميها وايتهيد طريقة أو منهج العقلية الخيالية ، ان نكشف الثابت والضرورة اللا متغيرة لتي لا نستطيع اكتشافها أو ملاحظ تها بطريقة الاختلاف ، أي ان عناصر تجربتنا لا تتضح ولا تتحيز إلا بقدر قابليتها للتغير ، ء ى شرط ان تبقى المدة المطلوبة لا هميـ [١١]. ومن هذا الجانب الا يستمولوجي في دراسة الميتافيزيقيا يقول وايتهيد : ان طريقة العقلنة الخيالية تنـ ح فيما فشلت فيه طريقة الاختلاف ، فهي تلاحظ الثابت الحاضر دائما الذي فشلت فيه طريقة الاختلاف في ملاحظته، أي ن ما يرمي ليه وايتهيد هو ن يجمع بين طريقتين أي طريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف بهذه الطريقة ا قرب ى جوهر تفكيره من طريقة الاختلاف ، لان ما يتـ ير بوضوح يكون حاضراً لم يغيب أو يكون غائباً ثم يصبح حاضر [١٢].

أن وايتهيد في ميتافيز يقياه يهتم بتلك طرق اهتماماً بالغاً لاسيما في البحث عن الخصائص العامة للكائنات الفعلية ومحـ ولة اكتشافها بواسطة الخبر ، لذلك يقول وايتهيد من ذلك : ان ما هو ضروري غير متغ ر ، ولهذا السبب يبقى في الفكر مظلماً وغامض). ويرى ان إ قامة مذهب ميتافيزيقي أو بناءه يجب ن يتم بالمنهج الذي يجب تباعه هو التعميم التخيلي ، وهناك شرطان : فالأول هو البحث الدائب عن مرين عقليين هما الا ساق ، والكمال المنطقي [١٣]. أما الشرط الثاني في الميتافيز يقيا فهو السير بمنهج التعميم كي يتحقق ويطبق . واختبار نجاحه هو التطبيق في مجالات تتـ اوز المجال المباشر الذي نشأ منه ، أو بعبارة خرى يجب ان يحقق رؤية جماليـ [١٤].

٤. موقف وايتهيد من مشكلة الابستمولوجية والصيرورة الطبيعية:

لابد لنا من بداية المسألة أن نعرف مسـ بقاً موقف وايتهيد من قضية الابستمولوج ية المعرفية أو من فلسفة المعرفة ، فهو بداية من موقفه الأساس المعرفي يُقر بوجود عناصر أساسية من التجربة، وأخرى عقلانية من العقل فالتجربة والعقل ملتحمان معاً في إطار وحدة عضوية أصلية لذلك فالخبرة هي استنباط الذات العارفة – عقلاً وجسمـ – بالموضوع الخارجي

الذي يستشير اهتمامه، ولولا ضرورة التحليل من اجل الفهم ما قلنا بوجود داخل أو خارج، فالإنسان والطبيعة هما شيء واحد تجمعهما الواقعة الطبيعية الشاملة [٥]. ويرى وايتهيد في أصول المعرفة الإنسانية أن الحياة العضوية تجمع بين العقل والجسم في وحدة واحدة، ثم عود فتجمعهما بالعالم المحيط بها ، فالذات المدركة هي حادثة طبيعة وان كانت مركبة ... وهي ذات قطبين عقلي وجسمي تضمهما رابطة عضوية كتلك التي بين الالكترونات ونواة الذرة من البروتونات ، وعندما ننظر إليها من الخارج ، نجد ارتباطها بالحوادث الأخرى التي تكون البيئة وأي محاولة ترى الى تقنية الوحدة الداخلية أو تثنية الوحدة الخارجية هي ضرب من التجريد الضار بالفلسفة العلمية [٦].

وعلى الرغم من أن نظرية وايتهيد المعرفية وفلسفته من الميتافيزيقيا تعتمدان على أسس تجريبية فإنها في الوقت نفسه تستهدف بناءً عقلياً وميتافيزيقياً . أي أن الكيان الفعلي مزدوج القطب أي أنه يحتوي على قطبين هما القطب الفيزيقي والثاني القطب العقلي أي أننا نستطيع أن ننظر من خلال مستويين متفاوتين في عمق الإدراك الأول هو مستوى الطبيعة في صورتها المجردة لتصورات عالية بلا علاقات وهذا مستوى الفكر ، حينئذ يكون إدراكنا للطبيعة بوصفها كياناً ، والثاني هو في صورتها العضوية بوصفها مركبة من حوادث وموضوعات ذات علاقات بينهما هذا هو مستوى الوعي الحسي ويكون دراكنا بها بوصفها عوامل Factors والكيان الذي هو من اختصاص الفكر مرادف لما نعنيه بالشيء Thing .

إذاً هناك قطبان في كل كيان فعلي، قطب عقلي، وقطب فيزيقي، وهما يرتبطان تمام الارتباط وفي هذا الصدد يقول وايتهيد : إن القطب العقلي ينبع كمتمثل تصوري لعمليات القطب الفيزيقي، والقطبان لا ينفصلان من أصلها، فالقطب العقلي يبدأ مع التسجيل التصوري للقطب الفيزيقي [٧]. وفي هذه النظرة الابستمولوجية هناك تناسق مع نظرته الميتافيزيقية أو مع مبدأ الانطولوجي، ذلك ان هذا المبدأ يقتضي ان كون المشاعر التصورية الأولية مشتقة من المشاعر الفيزيقية الأولية ، كما يقتضي أن تكون كل التصورات Concept الفيزيقية الأولية ، أو الأفكار Ideas مشتقة من المحل الأول من الخبرة الفيزيقية المباشرة بالفعاليات الأخرى ، وحسب ملاحظة وايتهيد وعلى حد تعبيره فان مقولة التوليد التصوري، تؤيد المبدأ القديم القائل بان الخبرة الحسية نتاج العمليات العقلية [٨] فمهمة الفلسفة الأولى التوحيد الكامل بين مكونات التفكير العقلي، أو بمعنى أخر

التنسيق وإعادة التحديد، والإحكام الواضح، وضبط الاتجاهات المختلفة للمعرفة الإنسانية كالعلوم والجمال والاخلاق والدين وهي تتكامل جميعها لتشكل فلسفة المعرفة، فهي أشبه بأدوات الفكر العقلاني التي تتناسق فيما بينها لتكوين مبدأ الوجود . ويتضمن مبدأ الوجود ما يمكن تسميته بالإمكانية المعرفي)[٩٠]، وهذا المبدأ يعني ان كل العمليات العقلية المركبة تعتمد كما أسلفنا على المشاعر التصورية الأولية وهذه الأخيرة تعتمد على المشاعر الفيزيقية الأولية وينتج عن ذلك أن الفكر عند وايتهيد يعتمد ويرتكز على لخبرة الحسية إلا أن وايتهيد يرى أن علينا أن نتصور الخبرة الحسية في ضوء المشاعر الفيزيقية الأولية البسيطة المنتظمة في القطب الفيزيقي، التي يبدأ منها ما أسماه بالتسجيل الصوري، يقول وايتهيد في بداية هذا الموضوع : ان التسجيل الصوري يؤلف المادة الوحيدة للخبرة ا ي رأي مدرسة الحسيين وهذا يعني ان هذه المدرسة غفلت تماماً المشاعر الفيزيقية المنتظمة في القطب الفيزيقي، ن انطباعات هيوم الحسية ومعطيات الحسية لا تنطبق إلا على التسجيل الصوري)[١٠٠].

هذه العملية التجريدية تعد ذات أهمية كبيرة حيث أنها تختص بعلاقة التفسير العق لي أو النظرية العملية بالمعطيات الحسية فالكائنات الفعلية ي نفسها عوامل ولكن بعد إجراء عملية تجريد بعدي عليها وهذا يؤكد اتصال العقل بالطبيعة وعدم اكتفاء أي منهم بذاته، ولكن المهم أن نعرف أن التفسير أو الإطار النظري للخبرة ليس من اختصاص الفلسفة الطبيعية ، فه ي تحصر نفسها فيما هو مدرك فقط ولا تقحم نفسها في علاقة المعرفة)[١٠١]. والفرق بين ا ' دراك الحسي والوعي الحسي، يتمثل في سطحية ا ول بحيث يغذي الفكر بمادته التجريدية بلا علاقات ثم عمق الثاني الذي يصل الى فهم حقيقة الشيء التي تكمن في علاقاته .

وفي ضوء التصور الحي للخبرة، يرفض وايتهيد ان نعد الطبيعة البشرية ماهية وجودية فهذا المفهوم إن جاز أن ينطبق على إنسان ما فهو أجدر بالجنين في بطن أم ، فالإنسان هو مجموع خبرات ، بينما تتعلق هذه الطبيعة بما لا يقع بالفعل ؛ إنما بالتصورات الواضحة المتميزة ، فهي حينئذ تثبت شيئا واحدا ، و إنسانيتنا كما هي ، فلا يكفي لكي يوجد الإنسان ان يفكر بل الفكر في كل شيء له وجود حقيقي . لذلك قرر وايتهيد ن جوهر اللاعقلانية متضمن في اللا ترابط، وأننا ذا قبلنا المذهب اللا عقلي، فأننا نقبل في الوقت نفسه قبولاً صريحاً أو مضموناً للفصل التعسفي)[١٠٢]. أي ن المذهب اللاعقلاني يتضمن إنكار العقل ومن ثم إنكار المبادئ العامة سواء كانت مطلقة العمومية أم أقل درجة في العمو ، ية مما يهتم العل ... وبذلك وايتهيد يهاجم المذهب

الوصفي تجاه موقفه من الميتافيزيقيا وهدفه لكل فكر ميتافيزيقي، وفي مواضع متفرقة من مؤلفاته هاجم ه ا الموقف ويرى نه موقف لا عقلي، وعدّه ممثلاً لأكبر خيانة حصلت في التاريخ ضد الفلسفة والعلم على حد سوا ٣ .

أن نشأة الفيلسوف الميتافيزيقي، وهو يقيم البناء الفعلي بنتائج مستمرة من مبادئ عقله هو، شأنه في ذلك شأن الرياض مستخرجاً فيه النتائج من المسلمات كما رأ ينا عند وايتهيد وهو الفيلسوف الرياضي فقد اعتبر النسق الميتافيزيقي قابل للتطبيق بالنسبة لمختلف الوقائع أو هو على حد قوله يمكن بواسطته تفسير كل عنصر من عناصر خبرتنا) لذا فان التصورات العامة الواردة فيه، هي في حقيقتها اقرب ما تكون إلى المتغيرات التي نجدها في الرياضة والمنطق والتي يكون فيها قيم مختلفة ومتعددة ٤ . ا على الرغم من ذلك فان وايتهيد ليس فيلسوفاً عقلياً بالمعنى التقليدي كما هو متعارف عليه مثلاً عندما نصف ديكارت) بأنه فيلسوف عقلي، إلا أن وايتهيد يـ د اختبار الواقع وممارسته مباشرة أمرا لا يضاهيه شيء ، ا كذلك هو يبحث عن علة الأشياء من خلال طبيعة الموجودات الواقعية ذاتها .

٥. التفسير الميتافيزيقي للصيرورة الطبيعة:

في مشكلة المكان والزمان

في الفلسفة العضوية عند وايتهيد

يحرص العلم على ان تكون لديه معطيات دقيقة ومنظمة عن العالم ، وذلك من اجل صياغة المفاهيم وا فروض صياغة رياضية ولاسيما وان العالم في نظر وايتهيد عالم عضوي في المقام الأوا ، أي يستحيل تصنيف مكوناته واستبعاد بعضها في ظروف من اجل التحكم في الدقة، فالعالم في رأي وايته د لا يتكون من أشياء بل من حوادث ، أي يتألف مما يتم حددته فكل امتداد زماني للحادثة ، وا ل خطوة من خطوات التجربة وكل ذرة من ذرات الوجود يحتل مناسبة زمانية معين . ولهذ ألد ت الحوادث بخاصية جديدة هي نتاج اللقاء أو التقاء الزمان بالمكان . هذه التخصص ة تتميز بكونها في حا ص يرورة دائمة، أي مرور مستمر، فهناك تعاقب الليل والنهار، وايتهيد في قوله صير ورة الطبيعة يتفق مع الفيلسوف الفرنسي برغسون حول الصيرورة، ولكن برغسون قصر صيرورة الطبيعة على الزمان وجعله ركيزة للتطور، اما وايتهيد فقد جعل

الصيرورة مرتبطة بالمفهوم الجديد المعاصر المكان، الزمان) وإلا ما استطعنا ان نفسر تطور الطبيعة إذا انفصل الزمان عنها [٥]، غير ان البعض يمكن ان يعترض على صيرورة الطبيعة بالقول انه توجد أنماط من الثبات في الطبيعة دركها بوعينا الحسي . وواقع الأمر كما يرى وايتهيد، أن مظاهر الثبات النسبي المشاهد في الطبيعة ع د إلى ثلاثة أسباب هي :

. البطء الشديد الذي يتم به التغير .

ب. قصور الإدراك الحسي السطحي عن ادارك حركة الحوادث .

ج . أن العلاقات بين الحوادث والموضوعات تكسب الحوادث صفات ذات ديمومة نسبية .

ثمة حقائق عند وايتهيد في مرور الحو ث ، مرور الحوادث ليس مروراً دائرياً ، أنما مستقيم وهذا يعني أنه يفضي دائماً إلى ما هو جديد . وهذا ما يقصده وايتهيد ف ي التقدم الخلاق [٦]، وان ، رد الحوادث يعني انتقالها من مرحلة الفعل الحاصر إلى مرحلة الممكن، وعلاقة الامتداد تدعم هذا الانتقال والحوادث التي وقعت ثم مرت لم تفن بمرورها وإنما أصبحت عنصراً يدخل في تكوين ما هو حادثة وما سيحدث في المستقبل وهذا معناه أن الماضي غير قابل للإلغاء وإنما يشارك في صنع الحاضر والمستقبل [٧]، لذلك وجب علينا أن نسلم بان كل الذي نلاحظه حوادث، وما دامت الحوادث موجودة، فان الزمان موجود ، وإذا انعدمت الحوادث من الوجود النقي الزمان ولم يعد له وجود [٨] .

كما لا يمكن فهم الزمان في ميتافيزيقيا وايتهد بدون فهم مسألة المكان، ولا فهم المكان من دون الزمان، لذلك يقول الكاتب الانكليزي ميتز : فلا يمكن أن يوجد مكان بلا زمان ، ولا يوجد زمان بلا مكان، مثلما يستحصل وجود المكان – الزمان دور مادة أو جوهر يه ، ولابد أن يشمل كل كيان طبيعي على هذه العوامل مجتمعة ، كما لا يمكن أن تكون العلاقات بينهما خارجية فحسب، بل يجب ان يتغلغل كل منهما في الآخر تغلغلاً باطن [٩] . فالطبيعة إذن عبارة عن شبكة متحدة فيما بينه ، تتداخل أجزاؤها بعضها من بعض، والحوادث لي ست زمانية فقط كما يفهما الآخرون ، بل أنها ديمومة زمانية مكانية في وقت نفس .

عرّف وايتهيد مفهوم التدفق) أو المرور : بأنه هو تدفق الزمان في الطبيعة بما يعبر عن صيرورة علاقة جزئياتها ببعضها ، ومن ثم فالصيرورة تمر من خلال أخرى ، وهذا التدفق ساس

للوعي الحسي إذ يؤكد امتداد الزمان خلف الطبيعة امتداداً لا متناهياً [١]. أما مرور الطبيعة فيتعلق بالتدفق المستمر للحوادث في حدود المدة الواحدة . ان اتجاه المرور مكانياً – زمانياً هو من اختصاص صفة المرور . وبذلك نرى أن مرور الطبيعة هو حالة خاصة من الصيرورة الشاملة للطبيعة ، ويكون المرور مظهر من مظاهر الصيرورة الطبيعية . هذا المظهر الكمي قابل للقياس، وهو ما يهتم به العلم، أذن فالمدة الواحدة لا تجسد المرور، ويتم ذلك من خلال النسق الزمني الذي يتضمن العديد من الحوادث، والحادثة تمثل امتداداً متساويا في كل من الزمان والمكان، هذا الامتداد هو نسيج للطبيعة ومبدأ الصيرورة فيه . وهذا المعنى للحادثة مستفاد بدرجة كبيرة من التقدم الذي حرزه علم الفيزياء في القرن العشرين فلم يعد هناك مكان ثم زمان ، فقد حلت الحادثة محل الجوهر القديم [١] وأصبح ارتباط الزمان بالمكان هو أساس حركية الحوادث والطبيعة ككل هذه الحركية هي النموذج الكوني الجديد الذي قدمته النسبية والكوانتا ، و سهمت هاتان النظريتان أيضاً في نهاية فكرة المادة كحقيقة قصوى لتحل محلها الطاقة وبذلك يقترب [٢] مفهوم الطاقة من مفهوم الحوادث ، فالحادث وقوع ذو انتشار مكاني زماني .

فكرة (منهج التجريد الامتدادي) وأهميتها في ميتافيزيقيا وايتهيد:

منهج التجريد الامتدادي [٣] كما قدمه وايتهيد اسلوب تحليل كيفية استناد الطبيعة الى التجربة بوصفها تجربة لطبيعة الأشياء وليست تجربة للنقاط أو المساحات، فهو وان كان رياضياً إلا أنه يستند الى الخبرة الحسية في الوصول إلى النتائج مما يؤدي الى تحديد العلاقة بين التصور العقلي وبين الواقع التجريبي، وعليه فوايتهيد أراد ان يثبت انه بالإمكان تحليل مكونات الخبر استرشادياً يصل الى المفاهيم الكامنة وراء مغزى الطبيعة والعلاقات والحوادث التي ترتبط بعلاقات فيما بينها، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد مهران ان منهج التجريد الامتدادي هو طريقة عقلية لا تزال العلاقات المكانية – الزمانية بين الحوادث حتى تصل إلى أيسرها وأكثرها وضوحاً ودقة ، ومن ثم فهو الطريقة التي بها تتم ترجمة غموض واختلاط مع طيات الخبرة الى وضوح ودقة العقل ، فإذا صح القول ان المفاهيم التحليلية بشكل عام هي أساليب توصلنا إلى معرفة أكثر وضوحاً ودقة [٤] فيمكن عدّ منهج التجريد منهجاً تحليلي . و خيراً نرى ان وايتهيد كان في دراسته لهذه المفاهيم الصيرورة الطبيعي) كان فيلسوفاً تجريبياً ذا نزعة واقعية ، شأنه شأن بقية الفلاسفة الانكليز ، يعتقد أولاً في وجود العالم الخارجي وجوداً مستقلاً منفصلاً عن وج ود

الذات الإنسانية التي تدركه، وثانياً يرى ان معرفتنا بوجود لموضوعات الخارجية يكون عن طريق دراكنا إياها بالتجربة الحسية، إلا أن وايتهيد يتجاوز تلك التجربة لى مستوى العقل الذي كان يؤمن به إيمانا وثيقة ، وأ طى للعقل دوراً ايجابياً ، هم .

هوامش البحث:

(1) Whitehead: A , N , Process and Realty , New York , Macmillan company , 1929, P.103.

(2) Whit head: A, N, Process and Realty, New York, Macmillan company, 1929, P. 103.

(3) Whit head: A, N, Science and modern world, New York, 1925, P.178, 179.

(4) Whitehead : Process , P.215.

( ) خليل، . ياسبن ، مقدمة في الفلسفة المعاصر ، منشورات الجامعة الليبية، كلية الاداب ٩٧٠ ، ص ٢٠٣ .

( ) محمد، . علي عبد المعطي ، لفرد نورث وايتهيد فلسفته وميتافيزيقيا ، سلسلة راسات الفلسفة الحديثة والمعاصرة، العدا ٢ ، الإسكندري ٩٧٩ ، ص ٢٠٠ .

(7) White head : Process and Reality , P.27.

(8) White Head : Adventures of ideas , New York , Macmillan , Press , 1933 , P.200.

(9) White Head : Process , P.3.

(10) White head : Religbn the Making , P.72.

( ) محمد ، . علي عبد المعطي : الفرد نورث وايتهيد فلسفة وميتافيزيقياه، د ٦٨ .

( ) رجب ، . محمود : الميتافيزيقيا عند الفلاسفة المعاصرين ، د ٢٠٥ .

( ) محمود ، . علي عبد المعطي : وايتهيد وفلسفته وميتافيزيقي ص ٧١ .

(14) White head : Process and Reality , P.7.

( ) محمد ، . علي عبد المعطي : وايتهيد فلسفته وميتافيزيقيا ص ٧٥ .

(16) White head : Adventures of Ideas , New Yourk , Macmilian company , 1933 , P.179.

١٧) بدوي، ا. عبد الرحمن : الموسوعة لفلسفية، ٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والتوزيع ، القاهر ، ١٩٨٦ ، ص ٣ ٤ .

١٨) ابراهيم ، . زكريا : دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٧٦ .

١٩) بدوي ، عبلد الرحمن : الموسوعة الفلسفية ، ص ٣ ٤ .

٢٠) محمد ، . علي عبد المعطي : وايتهيد لسفته وميتافيزيقياه ، ص ٨٥ ٨٦ .

٢١) رجب ، محمود : الميتافيزيقيا عند الفلاسفة المعاصرين ، ص ٢١٤ .

٢٢) محمد ، علي عبد المعطي : وايتهيد فلسفته ومتيافيزيقياه ، ص ٨٩ .

٢٣) رجب ، ا. محمود : الميتافيزيقيا عن الفلاسفة المعاصرين ، ص ٢١٧ .

٢٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .

٢٥) إسلام، ا. عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت ٩٨٠ ، ص ٢١٨ .

(26). White head : Process and Reality , P.127-129.

(27). Whit head : Process and Reality , P.١٨.

(28). Ibid , P.351.

(29). Ibid , P.351.

(30).White head : Process and Reality , P.127-129.

٢١) إسلام، ا. عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص ٢ ز ٣ .

٢٢) رجب ، محمود : الميتافيزيقيا عند الفلاسفة المعاصرين ، ص ٢٠٥ .

٢٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ .

(34) Whitehead: Modes of Thought, New York, Macmillan Press, 1938, P. 202-203.

(35). Whit head: The Concept of Nature, P.54., Tarner Lectures m 1919, Cambridge Unig Press , 1920.

٣٦) إسلام، ا. عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص ١٣ ١٤ .

٣٧) وايتهيد : مغامرات الأفكار ، ص ٠٩ ١٠ .

٣٨) المصدر نفسه ، ص ١٣ ١٤ .

٣٩) ميتز ، رودلف : الفلسفة ا نكليزية في مائة عام ، ترجمة فؤاد زكريا ، مراجعة . زكي نجيب محمود ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٢٢ .

(40) Whit head : The Concept of nature , P.55 , 56.

٤١) إسلام ، عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص ١١ .

٤٢) خليل ، ياسين : مقدمة في الفلسفة المعاصرة ، ص ٤٠ ٢٤١ .

(43). Whit head : The Concept of nature , P.74.

٤٤) دشوان ، ا. محمد مهران : فلسفة برتراند رسل ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٩ ، ص ٣٥ ٣٦ .

قائمة المصادر

١. إسلام، ا. عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠.

٢. براهيم، ا. زكري : دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٦٨.

٣. بدوي، ا. عبد الرحمن : الموسوعة الفلسفية، ، المؤسسة العربية للدراسات والتوزيع، القاهرة ١٩٨٦.

٤. خليل، ا. ياسين : مقدمة في الفلسفة المعاصرة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، طرابلس ١٩٧٠.

٥. دشوان، ا. محمد مهران : فلسفة برتراند رسل، دار المعارف بمصر، مصر ١٩٧٩.

١. رجب، محمود : الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٧٠.

٢. محمد، د. علي عبد المعطي : الفرد نورث وايتهيد فلسفته وميتافيزيقياه، سلسلة دراسات الفلسفة الحديثة والمعاصرة، العدد ٣ ، الاسكندرية ١٩٧٩.

٣. ميتز ، رودلف : الفلسفة الانكليزية في مائة عام، ترجمة فؤاد زكريا ، مراجعة د. زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٤.

٤. وايتهيد، الفرد نورث : مغامرات الافكار ، ترجمة انيس زكي، مراجعة محمود الامين، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٦٦.

10. White head: A. N. adventures of ideas, New York , Macmillan, company, 1933.

11. Whit head: A , N, Process and Realty , New York, Macmillan, 1929.

12. Whit head: A, N, The concept of nature, Cambridge, Press, 1920.

13. Whit head: A, N, Science and modern world, New York, 1925.

14. Whit head: A. N. Religion the making, Cambridge Univ., Press, 1926.

15. White head : A. N. Modes of thought m , New York , Macmillan , Press , 1938.